قصيدة التفعيلة

قصيدة التفعيلة : النشأة

إن إنجاز شعر التفعيلة في العربية كان انفراجا قدم، بنجاح، البديل الفعال لأسلوب الشطرين والقافية الواحدة في القصيدة العربية. هذه القصيدة التي ظلت الأداة الوحيدة للشعر المنهجي أكثر من خمسة عشر قرنا. بينما لم تلق أشكال المقطعات كالموشحات والأزجال انتشارا واسعا.

ورغم أنه كان هناك تطور متواصل في اللغة والمجاز وفي الأسلوب والموضوع الشعري، إلا أنه لم يحدث أي تغيير في شكل القصيدة الصارم بتوازنها المتناسق المتين، ونظام القوافي الثابتة.

إن بيت الشعر الواحد في الشكل الشعري التقليدي هو عادة منقسم إلى شطرين متساويين تقريبا.

وهذا التقسيم يرجع إلى الامتداد الطويل الذي يصل في بحور معينة إلى اثنين وثلاثين مقطع صوتي، والعروض في منتصف البيت، أي نهاية الشطر الأول، تحدث قطعة لطول البيت. وهو وإن كان قلعة كيفية، فإن الشعراء يلجأون إليه كثيرا إن لم يكن دائما، وهذا النظام يدل على أن البيت يجب أن ينتهي بقافية معينة، والتي بدورها تدل على أن البيت الواحد يجب أن يجسد وحدة معنوية وخيالية مستقلة، وهذا هو السبب الذي خلف كثيرا من الخصائص الجذرية والفنية للشعر القديم.

وهو أيضا يساعد على تفسير الصرامة في الشكل القديم، ليس مهمًّا عدد الشعراء الذين حاولوا إحداث تغيير في شكل القصيدة، لأنهم كلهم كانوا غير قادرين على تجاوز العناد في الشكل المتماثل والمتوازن، ما دام هناك العروض في آخر الشطر الأول من البيت، طبعا باستثناء بعض حالات الموشحات، حيث كانت هناك أسباب خارجة على الشعر .

لقد كان الحل لهذه المشكلة هو شعر التفعيلة ، ففيه كانت التفعيلة المفردة ، وليس البيت المفرد، هي الوحدة التركيبية للشعر .

والتفعيلة هنا يمكن أن تكرر حسب الرغبة ، و كذلك طول البيت المفرد يمكن أن يتنوع حسب ما تمليه رغبة الشاعر ، دون الارتباط بعدد مسبق من التفعيلات.

ومع ذلك فإن إنجاز شعر التفعيلة، الذي استطاع الذهاب بعيدا في القوافي و في تغيير كل جوانب الشعر العربي، لم يستطع تحقيق ذلك بسهولة. لقد استغرق ذلك أكثر من نصف قرن من التجارب العديدة والمتواصلة في سبيل تحرير شكل القصيدة، حيث كان هناك أيضا تجارب ثلاثة أجيال من الشعراء في الإصغاء للإيقاعات الحرة في الشعر الغربي (الشعر الفرنسي و الإنكليزي بصورة رئيسة) سواء منه المترجم أو ما كان في نصوصه الأصلية ، إلى **أن نجح الشعراء في محاولاتهم.**

قد لا يمت إلى الموضوع بصلة أن نستعيد الماضي، ونتساءل فيما إذا كانت حركة شعر التفعيلة تدين بانطلاقتها الأولى إلى بدر **شاكر السياب** أو **نازك الملائكة** ، لأن أول قصيدة من شعر التفعيلة كانت قد نشرت قبل أي قصيدة من قصائدهما.

على كل حال فإن للسياب ونازك الملائكة الفضل في انطلاق شعر التفعيلة كحركة، فالسياب من خلال شعره الذي قلده الكثيرون، والملائكة من خلال شعرها وتنظيرها النقدي للحركة.

ثم إن المجلة الأدبية **الآداب (بيروت 1952)** والتي كانت تأسست حديثا، قد فتحت صفحاتها للتجارب المتنوعة والحوارات الساخنة التي تلتها.

إن هذا العقد، مع ما حمله من عمق المرارة والخيبة التي تلت نكبة فلسطين، قد أوجد مناخا جيدا للأدب التجريبي، وسادت الأجواء روح من الرفض لكل شيء مضى، وفقد المثقفون العرب الكثير من احترامهم للمعايير والأشكال الموروثة من الثقافة القديمة، لقد بدا كل شيء مفتوحا للاستكشاف بما فيه الشعر المنثور، الذي كان يمثله خير تمثيل الفلسطيني توفيق صايغ، والسوري محمد الماغوط، وكذلك قصيدة النثر التي تختلف قليلا عن الشعر المنثور، وهذا الاختلاف أكثر ما يبدو في خلوها من الوقفات، وفي أنها تظهر على الصفحة كالنثر، وغالبا ما تكتب على شكل مقاطع. ولكنها تحتفظ بكل الملامح الأخرى للغنائية، بإيقاعاتها الواضحة المتعمدة، وتأثيراتها الصوتية، والمجاز وكثافة التعبير.

إن الممثل الرئيس لقصيدة النثر هم اللبنانيان أنسي الحاج ويوسف الخال، والسوري أدونيس. ويمكن ملاحظة تأثير الشعر الغربي هنا، خاصة في قصيدة النثر التي بنيت على أساس النموذج الفرنسي مباشرة، كما أن بعض كتاب شعر التفعيلة كأدونيس كتب أيضا قصيدة النثر بتميز كبير.

خصائص شعر التفعيلة:

إن الثورة الشعرية في الخمسينيات لم تحصر نفسها في تغييرات الشكل فقط، ولكنها التزمت بتغيير كل عناصر القصيدة : الأسلوب، والمجاز، والموقف والنعمة، والموضوع، والمزج بين الأساليب غير المباشرة.

لقد أقر الشعراء القواعد التي تقول بأن على الشعر **أن يكون تعبيرا عن التجربة الحقيقية** التي أدركها الشاعر بعقله وقلبه، كما أن على اللغة أن تكون جديدة مبتكرة وحديثة، وأن تطرح جانبا كل الكلمات القديمة والمبتذلة.

وأن لا يكون **التصوير المجازي** بعد الآن مجرد وصف عقلي أو تجريدي للطبيعة، بل عليه أن يقلع عن النماذج البيانية الكلاسيكية، ويحدث تحديا للمنطق.

وأما **الأشكال والإيقاعات** فيجب ألا ينظر إليها بعد الآن وكأنها شيء مقدس، فهي ليست أشياء منزلة ، إنما يجب أن تكون متناسبة مع مضمون القصيدة، وأن تكون جريئة .

يجب أن يعتمد بناء القصيدة على وحدة التجربة. ولا تكون تسلسلا لأفكار عقلية بحتة .

لقد سلط الشعر الجديد هجومه على عيوب المذاهب الشعرية السابقة كلها، وعلى التعبير البلاغي المنمق، والنبرة العالية والأسلوب المباشر عند الكلاسيكية الجديدة، وعلى العاطفية والميوعة والهروب والغموض والتجريد عند الرومانسية، وعلى العزلة، والانطواء على الذات، والنظر من البرج العاجي عند الرمزية. وعدا عن هذه التغييرات في الشكل، فقد أنجزت بعض التغييرات المهمة في حقلي التعبير والمجاز.